الفصل الرابع

obeikandl.com

obeikandl.com

نواقض التوبة

التوبة مقام يصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر حياته فعليه ألاّ يرجع إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع فإن رجع إلى المعصية وعاود الذنب فقد نقض توبته إذ أن صحة التوبة حينئذ مشروطة باستمرار التائب على دربه من البعد عن المعاصي فإذا تاب العبد من ذنب معين ثم عاود فعله فإنه حينئذ يعد ناقضا لتوبته بسبب معاودته ذلك الذنب مرة أخرى .

وهنا يطرح سؤال مهم: هل التائب الذي يعود إلى الذنب مرة أخرى يعود عليه إثم ذلك الذنب الذي تاب منه أول مرة ؟

وللإجابة عليه : الصحيح أنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة لأنه قد ارتفع بالتوبة وصار بمنزلة من لم يعمله وكأنه لم يكن فلا يعود إليه إثمه بعد ذلك والعائد إثمه عليه هو المستأنف لا الذي مضى وتاب منه ولأن التوبة الأولى حسنةً ومعاودة الذنب سيئة فلا تبطل معاودة الذنب هذه الحسنة كما لا تبطل السيئة الأخيرة ما قارنها من الحسنات .

ومن الأسباب الصارفة عن التوبة :-

إن النفس البشرية تفزع إلى اللذات والشهوات الجسمية والمعاصي وهي ولا شك تضعف القلب عن إرادة الخير وبالتالي تقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا حتى تنسلخ منه بالكلية ، فالمعاصي تزرع أمثالها من المعاصي ويولد بعضها بعضا فإذا هممت بالمعصية تجد قلبك يبحث عن لذة أخرى ومعصية

أخرى حتى يشرب المعاصي و لا يرتاح إلا عندما يفعلها و عندها تكون الطامة الكبرى فيشربها القلب وتطبع عليه المعصية ولا يستطيع أن يفارقها ويعتاد الحصول على هذه اللَّذة .

- وما ذاك إلاَّ لعدة أسباب منها :-

أولا: اعتماد العبد على سعة رحمة ربه جل وعلا وكرمه وعفوه:

حتى أن بعض المذنبين من الناس إن كلمته ناصحا إياه بالبعد عن الآثام رد عليك بأن رحمة الله واسعة ومغفرته تسع كل الذنوب ونسى هذا المسكين أنه لابد من أن يبدأ هو بطلب العفو والصفح من الله جل وعلا ثم بعد ذلك يأتي العفو والصفح والمغفرة ونسى هذا المسكين أن الله كما أنه غفور رحيم هو أيضا شديد العقاب لا يرد بأسه عن القوم المجرمين وعن الضالين وعن المكابرين ومن اعتمد على العفو فقط مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند المكابر الذي يصر على الذنوب علما بأن الإصرار على الذنب كَبِيرة من الكبائر وهذا ما قاله العلماء فهذه الصغائر تصغر في عينه حتى تصبح مثل الجبال فلا يستطيع أن يتركها .

ثانيا : أن الشهوة لذة ناجزه :-

وهذه الشهوة تنتهي بانتهاء اللذة ويبقى الحرمان والبغض والحزن على ما اقترف من المعاصي موجوداً في القلب و النزوع عن هذه اللَّذة العاجلة لخوف فوات الأجل شديدة على النفس وتذكر الموت وسرعة لقاء الله جل وعلا من أهم هذه العوامل التي تؤدي إلى البعد عن المعاصي مصداقاً لقول الرسول -ﷺ-"من خاف أدلج ومن أدلج وصل" أي يصل إلى مراده وهو الجنة ورضا الرحمن جل وعلا لأن من جعل خوفه من الله وَعَلِمَ أنه لابد أن يلاقيه فيحرص على رضاه وعدم غضبه كي لا

يكون لقائه بربه صعباً عليه ولكي يحل عليه رضا الله فلا يغضب عليه أبدا ويحرص على حسن الخاتمة وألا يموت على معصية الله -عزوجل- وأن يكون آخر عهده بالدنيا على طاعة الله عزوجل لقول الرسول- ﷺ- " يبعث المرء على ما مات عليه ".

ثالثا : التسويف والاغترار بالأماني :-

فهو يقول سوف أتوب ويؤخر في التوبة حتى يأتيه الموت فجاءه فلا يستطيع تحصيل التوبة فيموت على المعاصي والأماني الزائفة وعندها يندم أشد الندم على ما فرط في جَنْب الله جل وعلا وعلى ما فرط في جواره الآمن و على ما فرط في البعد عنه بلذةٍ منتهيةٍ الخسران واستحقاق الدخول في النيران قال تعالى:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٨]

وقد سبق شرح هذه الآية في الفصل الأول فاحذر من التسويف ففيه الهلاك قال رسول الله - ﷺ- "هلك المسوفون ، قيل وما المسوفون يا رسول الله ؟قال هذا رجل يقول سوف أتوب ويؤخرها حتى يأتيه الموت فجأة" فأحذر من الموت على معصيةٍ لأنك سَتُبْعث بين يدي الرحمن على المعصية التي كنت تفعلها في الدنيا .

رابعا : الحرص على جمع المال : -

وَصَرْف الجُهد لتحصيله وتركيز الفكر حوله وانشغال القلب بموارد المال ومصادره ونحن لا نقول لك لا تعمل ولكن لا يكون كل همك في الدنيا جمع المال

فنحن نريد المال في يديك ونريدك أن تعمل وتجد ولكن لا تجعل المال في قلبك تتعلق به فكان السلف الصالح منهم من يعمل في التجارة ومنهم من عنده من المال الكثير لكنه كان في أيديهم ولم تتعلق به قلوبهم فهذا السلف الصالح رضوان الله عليهم كانوا يملكون من المال الكثير لكنه كان لا يشغلهم عن عبادة الله جل وعلا ويتسابقون في الخيرات ففي يوم دعا النبي -ﷺ- الصحابة إلى الصدقة فقال عمر بن الخطاب اليوم أسبق أبو بكر إن سابقته يوما - وكأن الأمر فيه شك – فجاء عمر بشطر ماله ووضعه بين يدي رسول الله -ﷺ- فقال له رسول الله -ﷺ- ماذا تركت لأهلك قال عمر تركت لهم مثله وجلس ينتظر ما سيفعل أبو بكر فجاء أبو بكر ووضع ماله كله بين يدي الرسول الكريم فقال له الرسول -ﷺ- ماذا تركت لأهلك قال أبو بكر تركت لهم الله ورسوله -ﷺ- ، وهذا عثمان بن عفان يجهز جيشاً بأكمله " جيش العسرة " ويشتري بئراً من الماء ويهبه لله ليحمي المسلمين من جشع اليهودي مالك البئر فهم جعلوا المال في أيديهم ولم يجعلوه في قلوبهم وطلبوا الجنان وبذلوا لها الغالي والنفيس ولم يتعلقوا بالمال ولم يشغلهم عن الآخرة التي هي هدفهم الأصلي أما نحن فجعلنا المال في قلوبنا إلاّ من رحم ربي فأخذنا عن الله وعن الطريق المستقيم فأصبحت شهوة جمع المال طاغية علينا مما قد يؤدي إلى الغفلة عن المصير المحتوم ونسيان الاستعداد لما بعد الموت التي هي الأساس الذي يجب أن نعيش من أجله فلا تنظر إلى الدنيا وزينتها وأنظر إلى رضا ربك وأعلم أن رزقك لن يخلفك فلا بد أن تطمئن و لا تجمع من الدنيا إلاَّ الخير والعمل الصالح فإن المال يُجْمَع للنفاذ .

آه يـــا عبـــد كـــم يـــراك الله عاصـــيا

حريصا على الـــذنب وللمـــوت ناســـيا

أنـــسيت لقـــاء الله واللَّحـــد والثـــرى

ويوما عبوسا تَـــشِيب فيـــه النواصِـــيَّ

فلو أن المرء لم يلـــبس ثيـــاب التُقـــى

تَجَـــرد عريانـــا و لـــو كـــان كاســـيا

خامسا : الغفلة والفراغ :-

اللَّذان يدفعان العبد على الفرح بشهوة محرمة وهذا الفرح دليل على شدة الرغبة فيها فكلما زادت رغبته في الذنب كلما كان فرحه به فيصر على الذنب ويداوم عليه بل ويصر عليه ليحصل على لذة مؤقتة تزول بزوال هذه الشهوة وكذلك الجهل بمن يعصاه فهو يعلم أن له رب يعبده لكن لا يعلم عن صفاته شيئا فيغفل عن المطلوب منه ويقع في المحظورات وهو لا يعلم فلا بد للعبد أن يتعلم تعاليم ربه ويعرف من هو ربه ويعرف صفاته وأسمائه العُلا والجهل بسوء عاقبتها يجعله يقع في هذه الذنوب دون علمه بعظم خطرها فلو علم خطرها وما ينتظره من عقاب ما فعله وخاف من عواقب هذه الذنوب والمعاصي فلا يعذر بجهله لأنه لم يطلب العلم ولم يتعلم ليحمي نفسه وليعرف من يعبد وهي من أهم الطرق لعبادة اللّٰه- عزوجل- فلا يعقل أن تحب من لا تعرفه ولا تعرف عن صفاته شيئا .

سادسا : إستصغار الذنب :-

فيقول عندما يفعل ذنب وتقول له لما فعلت هذا الذنب يقول لك هذه صغيرة وسوف يغفرها لي ربي **قال تعالى**:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور:١٥]

وكأنه ضمن وأمن مكر الله جل وعلا وهذه هي المصيبة فتتجمع هذه الذنوب الصغيرة على قلبه حتى تهلكه ويظل يفعل في الصغائر حتى تهون عليه المعاصي ويعتادها ويقع في الكبائر وتهون الكبائر والصغائر في عينه حتى تُهْلكه مما يسبب عدم الخوف من الله **قال تعالى**:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر:٦٧]

فهو لا يعرف قدر من يعصيه فهو لا يعرف عنه غير أنه رؤوف رحيم ونسي أنه ذو عذاب أليم ونسي أنه جبار متكبر قوي يحمل الأرضين على إصبع والسموات السبع على إصبع ويحمل العرش على إصبع علم مدى قوته يعذب كل من تكبر عليه فالمؤمن يرى ذنوبه كبيرة لا يقدر على حملها والعاصي يراها هينة ولا يعبأ بها ويقول هذه صغيرة وسوف يغفرها لي ربي كما يقول الشاعر:

لا تحقرن من الذنوب كبيرها

وصغيرها فإن الجبال من الثرى

فاللّه يغضب من العاصي حتى وإن صغرت معاصيه فهو يحاسبه على معاصيه الصغيرة والكبيرة **قال تعالى** "﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدَّثر:٣٨]

و يعاقب عليها الأمم إذا ما ظهر فيها الفساد وكثر فيها الخبث **قال تعالى**:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

[هود:١٠٢]

وما قوم عاد ببعيد وما قوم ثمود منهم ببعيد فهم أهلك الأمم كلها لما تجبروا على اللّه وعتوا في الفساد وظاهروا اللّه بالعداء أهلكهم اللّه ليكونوا عبرةً لمن بعدهم ويكونوا عبرةً للناس والأمم التي بعدها .

obeikandl.com